IRAQI Academic Scientific Journals
العراقية المجلات الاكاديمية العلمية

Contents lists available at Academic Scientific Journal
http://www.iasj.net

Tikrit Journal for Political Science

قراءة في فكر غوستاف لوبون في تفسيره لنشوء وتطور الحضارة

A reading of Gustave Le Bon's thought in his interpretation of the emergence and development of civilization

Dr. Haifa Rashid Hassan

م.د هيفاء رشيد حسن (*)
كلية القانون والعلوم السياسية / جامعة كركوك

A r t i c l e i n f o.

Article history:
- Received 21 January. 2021
- Accepted 17 February. 2021
- Available online 31 March. 2021

Keywords:
- Gustave Le Bon
- civilization
-Time

Abstract: the human civilization has been formed since its inception and so far as a multi-colored fabric، each of which - while retaining its own structure - gives its unity with the rest of the threads of this fabric its durability and its final shape، like a mosaic of each part، its own. However، the alignment of these parts according to their construction laws gives the final plate its own beauty، which derives from the interaction of these elements with each other. In the end of the year، the United States and the United States were able to support the United States and the United States، and the United States، as well as the United States، have made it clear that the United States and the United States have not yet done so It is a major factor that has contributed to its emergence and to the knowledge of the most important thing that can contribute to its prosperity as well as its deterioration and decline، and there was no better From the pursuit of Gustave Le Bon's ideas and opinions، this research was a modest attempt in this field.

(*)**Corresponding Author**: **Haifa Rashid Hassan**، **E–Mail**، **dr.hayfaa74@gmail.com** **Tel**: ، **Affiliation**: **College of Law and Political Science / University of Kirkuk**.

معلومات البحث:

تواريخ البحث:

الاستلام: 2021\1\21

القبول : 2021\2\17

النشر :2021\3\31

الكلمات المفتاحية:

– غوستاف لوبون

– حضارة

–الزمن

الخلاصة: تشكِّل الحضارة الإنسانية منذ نشأتها وحتى الآن نسيجاً متعدد الألوان، كلّ خيط فيه – مع احتفاظه بكينونته الخاصة – يعطي بتلاحمه مع بقية الخيوط لهذا النسيج متانته وشكله النهائي، مثله في ذلك كمثل لوحة فسيفساء كل جزء منها مستقل بذاته، ولكن اصطفاف هذه الأجزاء وفق قوانين بنائها يعطي اللوحة النهائية رونقها الخاص الذي يستمد جماليته من تفاعل هذه العناصر مع بعضها البعض. ولكل أمر أسبابه، وكذلك الحال في مسيرة الحضارات، هناك عوامل لقيامها وانهيارها وكل الفلاسفة يقرون بذلك إلا ان بعضهم ذهب الى القول بأحادية العامل، ويذهب البعض الآخر مثل غوستاف لوبون الى وجود عوامل عدة تعمل في صورة تفاعلية موحدة يكون فيها للعوامل الروحية الدور الأبرز بوصفها القوى الدافعة للإنسان. لذلك كان لابد من معرفة أهم العوامل التي ساهمت في نشوؤها ومعرفة أهم ما يمكن أن يساهم في ازدهارها وكذلك في تدهورها وانحطاطها، ولم يكن هناك أفضل من تتبع أفكار غوستاف لوبون وأراءه، فكان هذا البحث محاولة متواضعة في هذا المجال.

المقدمة:

موضوع الحضارة، ظهورها وسقوطها يشكل أهمية كبيرة لدى الباحثين وقد تنوعت المحاولات الفكرية في سبيل تفسير الحضارة وبحث تطورها وأسباب سقوطها حتى لازمت التطور التاريخي الإنساني، فكان البعض منها يرد الحضارة الى العناية الإلهية عندما تشمل برعايتها أمة من الأمم أو تسلط غضبها على أمم أخرى ، لأسباب لا تخرج عن حدود الطاعة والمعصية ، وهو تفسير نجده عادة لدى المفكرين ذوي الخلفيات الدينية والبعض الآخر لم يجد تفسيرا مقبولا لتتابع الحضارات الا القول بنظرية التقدم الدوري، ولكن النجاح الذي حققته العلوم التجريبية في العصر الحديث القى بظلاله على الدراسات الإنسانية ، فحاولت الارتقاء بأبحاثها ، وبذلك ظهر توجه في فلسفة الحضارة يربط بين نشاط الأنسان وتطور الأمم ولذلك نجد من يفسر تفسيرا مناسبا لظهور الحضارات واختفائها ، ومن هؤلاء المفكر الفرنسي غوستاف لوبون ، والذي سيكون نموذجا للتعرف على دور العوامل المتعددة التي تساهم في نشوء الحضارات وتطورها .

إشكالية البحث: وهنا تكون معالم إشكالية البحث قد تبلورت فالموضوع يتناول الحضارة وهذا بالبحث عن عوامل ظهورها وانهيارها وعلى شروطها ، والتعرف عن المدى الذي يمكن أن تبلغه العوامل النفسية في تشكيل الحضارة من خلال ما كتبه هذا المفكر ومنه ستكون إشكالية البحث على هذا النحو : ما هي أهم العوامل التي تساهم في نشوء وتطور الحضارات ؟وكيف تؤثر العوامل النفسية في ظهور وتطور الحضارات ومسببات سقوطها ؟،وكيف تحددت مساهمة غوستاف لوبون في هذا الجانب؟

فرضية البحث: ينطلق هذا البحث من مجموعة الفرضيات التي تم تحديدها من خلال الغوص في أفكار غوستاف لوبون التي تضمنتها معظم مؤلفاته، وهي كالآتي: –

1. هناك دور كبير للحضارة في إزالة التناقضات القائمة ما بين المجموعات البشرية ذات الانتماء العرقي والثقافي المختلف، وكذلك بين الشعوب المتطورة وغير المتطورة وبين ماهية السلطة والحاجة الى نظام عام لأنها المرحلة العليا من تباين الوجود الإنساني وهي تضم داخلها الأبعاد التاريخية للواقع.

2. مع اختلاف العوامل الانثروبولوجية والجغرافية والاقتصادية لكل شعب من الشعوب حيث لابد للتجربة الإنسانية من ان تكون متفاوتة في النمو والنضج من منطقة لأخرى ومن زمن لأخر ومن شعب لأخر.

3. تعد مشكلة العلاقة بين العامل الحضاري والتشكيلة الحضارية من أكثر المشكلات حضوراً لدى المحاولة لإدراك أهمية ودور الحضارة في التاريخ الإنساني، حيث يعد الأنسان والزمن والأفكار والبيئة من أهم شروط الحضارة.

4. هناك عاملان أَساسيان يشكلان الأساس الجذري لتحول و تبدل الفكر البشري إلا وهو تدمير العقائد الدينية و السياسية و الاجتماعية التي اشتقت منها كل عناصر الحضارة لان الدين والعادات والتقاليد من أهم عوامل نشوء الحضارات و الثاني هو خلق شروط جديدة كلّياً بالنسبة للوجود و الفكر و قد تولدت عن الاكتشافات الحديثة للعلوم وا لصناعة.

5. يعد العامل النفسي من أهم العوامل في نشؤ وتطور الحضارات عند غوستاف لوبون.

أهمية البحث: أما أهمية البحث فتعود لحيويته واتصاله الوثيق بواقع الأمم ومستقبلها، لذلك كان من الطبيعي ان يتصدر اهتمام المؤسسات ومصادر صنع القرار في المجتمع الدولي، وكان الدافع الأكبر وراء البحث في هذا الموضوع هو ما تظهر عليه الدول العربية والإسلامية من تخلف يعم كافة أرجاء الحياة فيها، اذ لا يوجد مانع مادي يحيل بين هذه الدول والحضارة.

منهجية البحث: من أهم مناهج البحث العلمي التي تم الاعتماد عليها في معالجة موضوع البحث هو المنهج التاريخي والمنهج التحليلي، لأنه من المناهج الملائمة للتعامل مع مثل هذه المشكلات.

المبحث الأول(غوستاف لوبون .... النشأة و الأعمال)

المطلب الأول : التعريف بغوستاف لوبون

كان ميلاد المفكر وعالم الاجتماع والانثروبولوجي والفيلسوف الفرنسي ، شارل ماري غوستاف لوبون Charles – Marie – Gustave le bon يوم (٠٧ ماي ١٨٤١ م) ، حسب شهادة المادة الموجودة في أرشيف بلدية توجو لو روترو [1] Nogent – Le – Rotrou ، الواقعة إلى الجنوب الغربي من باريس ، وتوفي في ديسمبر ١٩٣١ م ، في مارن لا كوكات – Marnes – la Coquette الواقعة غرب العاصمة الفرنسية[2].

تابع دراسته الابتدائية في مسقط رأسه ، ثم انتقل إلى ثانوية تور Tours [3]، وبعدها واصل دراساته الجامعية كطبيب في باريس ، عُيّن كضابط صحة إلى غاية ١٨٦٦ م ، وهناك حصل على الدكتوراه في الطب [4]، وتولى عام ١٨٧٠ م رئاسة الأطباء العاملين في إحدى قطعات الجيش الفرنسي بباريس ، أثناء حدوث نزاع بين فرنسا وألمانيا ما بين ١٨٧٠ و ١٨٧١ م . وكان يتمتع بروح فضولية تهتم بكل شيء ، إلا أنه كان يميل إلى الطب أكثر ، لاسيما في سنواته الأولى من الدراسة الجامعية ، دون أن يمنعه ذلك من الاطلاع على مباحث الفيزياء والأنثروبولوجيا [5]. وكان يكتب في كل مجال يطرقه [6]، و ينشر مقالاته في المجلات وأبرزها " المجلة العلمية "، التي نشرت له أكثر من خمس وثلاثين مقالة ، شرع فيها سنة ١٨٨١ م إلى غاية ١٩٠٧ م [7].

وبالإضافة إلى الكتابة والتأليف ، كان يعقد اتصالات مع الجمعيات ذات الطابع العلمي ، وله مراسلات وتقارير علمية كان يوجهها إلى المؤسسات المهتمة بالثقافة والعلوم ، مثل أكاديمية العلوم (L' Academie des Sciences) في فرنسا ، وبلغ مجمل هذه المراسلات التي بدأها سنة ١٨٦٥ م إلى غاية ١[8]٩٢٠ م ، ما يربو عن خمس وأربعين مراسلة علمية [9].

---

(1) Benoit Marpeau ، Gustave Le Bon ، parcours d ' un intellectuel (1841-1931) ، Cnrs Edition، Paris 2000، p 19.

(2) Ibid ، p 16.

(3) Ibid . p 23.

(4)Ibid ، p 33 .

(5) Ibid ، p 46.

(6) Catherine Rouvier ، les idées politiques de Gustave Le Bon ، Presses Universitaires de France ، 1er Edition ، 1986 ، Paris ، p 264-265.

(7) ibid ، p 266 – 267.

(8) Ibid، p 267 – 269.

(9) Benoit Marpeat ، Gustave Le Bon ، parcours d'un intellectual op.cit ، p 72.

وله مساهمات في جمعية الأنثروبولوجيا (La Societe d ' anthropologie) التي أسسها بول بروكا Paul Broca (١٨٨٠ – ١٨٢٤ م) ، وقد انظم إليها لوبون عام ١٨٧٨م[1].

ثم أنخرط في الجمعية الجغرافية La Société de geographie عام ١٨٨٠ م ، وما يميزه أيضا أنه كان كثير الترحال ، فقام بسلسلة من الرحلات إلى شمال إفريقيا والشرق الأوسط والهند، وجمع هناك تقارير وملاحظات كانت المادة التي شكلت أهم أعماله حول الحضارة فيما بعد . وكان على احتكاك مباشر بمشاهير عصره[2].

هذا النشاط جعله شخصية اجتماعية مرموقة ، وأهله للمشاركة في الحياة الثقافية والعلمية في فرنسا ، ومن ذلك أنه كان يشرف على تنظيم مأدبة في منزله ، تقام شهريا بمشاركة تيودول أرمان ريبو Theodule Armand ribot (١٩١٦ – ١٨٣٩ م) حيث يلتقي فيها برجال العلم والسياسة [3].

فضلاً إلى التأليف استمر في كتابة المقالات، وكان ينشر أغلبها في المجلة الفلسفية Revue philosophique ،وبعضها في مجلة السياسة والآداب Revue politique et littéraires ء ، وأحيانا ينشر في حوليات الآداب والسياسة Annales littéraires et politiques ، فبلغت مقالاته التي خصصها للدراسات الإنسانية في مجملها ثمان وعشرون مقالة[١] ، ولم يتوقف عن الإنتاج الفكري حتى في اصعب سنوات الحرب العالمية الأولى ، والتي كانت في نظر بينوا ماريو* Benoit Marpeau فترة ذهبية لهذا المفكر ، حيث ارتفعت نسخ كتبه المطبوعة إلى أرقام قاربت ما كانت عليه سنة ١٩٠٢ م [4]، وإذا كان غوستاف لوبون قد صنع لنفسه مكانا مميزا في الفكر الغربي مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، فإن شهرته في الغرب، بدأت في التراجع عقب وفاته . لكن هناك من أراد أن يوقد جذوته في الشرق، وهذا عن طريق نقل كتبه إلى اللغة العربية ، ومن هؤلاء وزير العدل في مصر فتحي باشا زغلول، الذي شرع في ترجمتها ، فنقل إلى العربية ' سر تطور الأمم" ** les Lois Psychologiques

---

(1) ibid ، p 74

(2) ibid ، p 131.

(3) Benoit marpeau، op.cit، p 265 – 266.

(*) بينوا ماريو : باحث فرنسي و أستاذ محاضر في التاريخ المعاصر، في جامعة caen بفرنسا.

(4) Ibid ،.199 – 198 p

(**) ترجمة: عادل زعيتر أيظا تحت عنوان " السنن النفسية لتطور الأمم ، دار النشر : دار المعارف – مصر ، ٢٠١٤

(***) ترجمة : احمد فتحي زغلول تحت عنوان " روح الجماعات " و ترجمه هاشم صالح ، تحت عنوان " سيكولوجية الجماهير.

Psychologie de "*** ، و " روح الاجتماع Des l ' Evolution des Peuples foules، وكان لوبون يرى في هذا المترجم ، أفضل قلم نقل كتبه إلى العربية [1]، وابتهج عندما علم أن كتابه " حضارة العرب ' مقررا على الطلاب في جامع الأزهر [2].

المطلب الثاني : أَهم أَعمال غوستاف لوبون

أما المقالات التي تناولت أعماله فكانت غزيرة ، فما إن يصدر مؤلفا ، إلا وتعقبه مقالة نقدية، واغلبها كانت تنشر في المجلة الفلسفية على منوال هذا العنوان critique de L ' homme et les Societes ، بعد صدور كتابه L ' homme et les societes، leurs Origiries et leurs histoire [3]، وهو اهتمام يبين مدى شهرة هذا الرجل في حياته ، ويعكس سمعته الكبيرة .لكن مع وفاته أفل نجمه ولم تظهر مقالة مخصصة لهذا المفكر في فرنسا كما تقول هذه الباحثة حتى سنة ١٩٧٧ م ، وإلى غاية ١٩٨٤ م ظهرت سبعة مقالات فقط ، بمعدل مقالة في كل سنة ، وخارج فرنسا أحصت ثلاثة مقالات [4].

وبالانتقال إلى الكتب المتخصصة التي أحالت على هذا المفكر ، أحصت كاترين روفي خمسة وعشرين كتابا ، أولها ظهر سنة ١٩١١ م ، وأخرها كان سنة ١٩٨٥ م في فرنسا ، وثمانية كتب خارجها ، وبالنسبة للكتب العامة التي أشارت لها ، فوجدت أنه ذكر في خمسة كتب فقط في فرنسا ، ما بين ١٩٧٢ م ، وسنة ١٩٨٥ م ، وذكر في اثني عشر كتابا خارج فرنسا مع انه في حياته كان يحيل إليه مفكرون لهم سمعتهم أمثال سيغموند فرويد Sigmund Freud ، (١٩٣٦ – ١٨٥٦ م) الذي جعل أحد فصول كتابه " علم نفس الجماهير يأخذ العنوان التالي : " نفسية الجماهير بحسب تصور السيد غوستاف لوبون" [5]، في إشارة واضحة لقيمة هذا الرجل[6].

أنه شخصية عامة طغت في الأفاق ، حتى أن ثيودور روزفلت (١٨٥٨–١٩١٩ م) Todore Roosevelt الرئيس الأمريكي كلما ذكر لوبون نفسه ، كان كثيرا ما يعيد على الأسماع ، بان كتاب " السنن النفسية لتطور الأمم " وهو من أهم الكتب التي ألفها لوبون ، لم يكن يفارقه أبدا ، لكن هذا لم يشفع له . والتمعن في الإحصائيات التي استغرقت كاترين روفي في

---

[1] غوستاف لوبون ، اختلال التوازن العالمي ، ترجمة :صلاح الدين وصفي ، مطبعة العرب للبستاني – مصر ، ١٩٢٨، ص ٥٣.

[2] المصدر نفسه ، ص ٥٢.

[3] Benoit marpeau، op.cit، pp 270 – 271.

[4] Ibid ، pp 271.

[5] سيغموند فرويد ، علم نفس الجماهير، ترجمة: جورج طرابيشي، ط١، دار الطليعة للطباعة ، بيروت ، ٢٠٠٦، ص ٢٥.

[6] Benoit marpeau، op.cit، pp 272 – 273.

جمعها لست سنوات ، كشف عن مفارقة غريبة ، لقد أصاب لوبون شهرة كبيرة في حياته ، وبمجرد وفاته الفه النسيان ، وإنها لمفارقة تدعو للبحث عن السبب الذي يكمن وراء هذا الإهمال ، وهنا افترضت كاترين روفيي أن سبب الإقصاء قد يكون له صلة بما حدث في بداية القرن العشرين ، من ظهور أحزاب سياسية حاملة لأفكار متطرفة ، أكسبتها سمعة سيئة في أوروبا ، مثل الفاشية والنازية ، ومن المحتمل أن يكون أقطاب هذه الأحزاب ، قد تأثروا بفكر لوبون ، خاصة ما جاء في كتابه " سيكولوجية الجماهير" الذي ظهر سنة ١٨٩٥ م ، ونقل إلى اللغة الألمانية سنة ١٩٠٨ م ، وإلى مثل هذا ذهب الدكتور هاشم صالح في المقدمة التي كتبها عندما أعاد ترجمة كتاب " Psychologie de foules " إلى العربية ، ومن أهم الأسباب التي قد تكون ساهمت في تهميش غوستاف لوبون ، أنه برجوازي وكان ضد الثورة الاشتراكية الصاعدة آنذاك[1].

المبحث الثاني: ماهية الحضارة و شروطها عند غوستاف لوبون

بعد هذه الإطلالة على حياة غوستاف لوبون ، سيتم الشروع في الكشف عن التصور الذي صاغه حول ظهور الحضارات، وازدهارها و عوامل انحطاطها ، ولكن قبل ذلك سوف يتم العمل على إزالة اللبس الذي نشأ بسبب توظيفه لمصطلح العرق في كتبه التي لها صلة بالحضارة والتاريخ ، بحيث ترك انطباعا بأنه من أنصار التفسير العرقي للحضارة .

المطلب الأول: مفهوم الحضارة

الحضارة هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء كانت نتيجة الجهود المادية أو المعنوية [2]، هذا المفهوم الذي يحدد الحضارة، قد لا يعثر عليه بهذا المعنى في التراث العربي القديم ، فمادة (حضر) في لسان العرب لابن منظور (١٢٣٢ – ١٣١١ م) تشير إلى معاني عديدة ، من بينها الإقامة في الحضر في مقابل الإقامة البدوية [3].

واستمر هذا المعنى يتردد في الإنتاج الفكري العربي ، فظهر عند ابن خلدون (١٣٣٢ – ١٤٠٦ م) و الذي جاء بعد ابن منظور ، فكانت الحضارة عنده مرحلة تتقدمها البداوة يقول : " الحضارة إنما هي تفنن في الترف و إحكام الصنائع المستعملة في وجوهه و مذاهبه من المطابخ والملابس و المباني و الفرش والأبنية

وسائر عوائد المنزل وأحواله ، فلكل واحد منها صنائع في استجادته والتأنق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضا وتتكاثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات و الملاذ والتنعم بأحوال

---

[1] غوستاف لوبون ، اختلال التوازن العالمي، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٥١.

[2] Catherine Rouvier ، les idées politiques de Gustave Le Bon ،op.cit، p 28

[3] حسين مؤنس ، الحضارة ، دراسة في أصول و عوامل قيامها وتطورها ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، د ط ، ١٩٧٨ ، ص ١٣.

الترف وما تتلون به من العوائد" [1]، ولم يعرف هذا المفهوم توسعا كبيرا ، وبقي حبيس المفهوم الذي وضعه ابن منظور ، لذلك يذهب نصر محمد عارف ، إلى حد اعتباره مصطلح أصيل عند صاحب لسان العرب[2]، أما المعنى المتداول للحضارة في الفكر العربي المعاصر ، فيرى هذا الباحث أن مرجعيته غربية لهذا يجب تتبع المصطلح في اللغات المنتشرة هناك إذا أريد له أن يُفهم على حقيقته ، حيث استعمل المصطلح civilization في حدود القرن الثامن عشر ، من طرف دي ميرابو Comte De Mirabeau (١٧٤٩ – ١٧٩١ م) ، وتحديدا سنة ١٧٥٧ م ، وكان يعني به حسب (نصر محمد عارف) رقة طباع الشعب وعمرانه ، ويرى أن الكلمة ظلت خارج المعاجم والقواميس في تلك الفترة [3].

ومصطلح civilization في الغرب مشتق من الكلمة اللاتينية civis أي المدني أو المواطن في المدينة، وكانت تعبر عن حياة الرقي والتقدم التي يعيشها الأفراد في المجتمعات. واستعمالها بهذا المعنى في اللغة الفرنسية عند (قسطنطين زريق) أقدم منه في اللغة الإنجليزية. وعندما اطلع العرب على هذا المصطلح كان من الضروري تعريبه، والتعريب يقتضي العودة إلى الجذر اللاتيني ، ثم البحث عما يقابله في اللغة العربية ، فكان اللفظ مدني يقابل civis اللاتينية ، وهنا ظهرت كلمة المدنية بمثابة تعريب المصطلح الغربي ، ونفس المعنى يؤديه لفظ الحضارة [4]. لكن وجود لفظ الثقافة culture بالتوازي مع مصطلح الحضارة خلق نوعا من الارتباك في إيهما أقدر للتعبير عن وصف وضعية الأمة إزاء التقدم و التخلف.

إلا أن ذلك لم يمنع من ظهور محاولات تسعى لتعريف الحضارة، ومن ذلك نذكر ول ديورانت Will Durant (١٩٨١ – ١٨٨٥ م) بوصفه أحد أهم المفكرين الذين تخصصوا في دراسة الحضارات . لقد نظر إلى الحضارة باعتبارها " نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وتتألف الحضارة عنده من أربعة عناصر وهي؛ الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية ، والتقاليد الخلقية ، ومتابعة العلوم ، وتبدأ الحضارة عنده حيث ينتهي الاضطراب والقلق" [5].

وإذا تم تجاوز الخلاف القائم بين الحضارة و الثقافة ، و أيهما يطلق على العناصر المادية، وأيهما يخص العناصر المعنوية ، فإن الباحث يصطدم مع خلاف أخر حول عناصر الحضارة واهميتها ، والمقاييس التي يجب النظر إليها عند الحكم على الشعوب بالتقدم أو التخلف . وحتى مع

---

[1] ابن منظور، لسان العرب المحيط ، دار لسان العرب ، المجلد الأول ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ، ص ٦٨٥ .

[2] ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر، بيروت ، طرا ، ٢٠٠٣ ، ص ١٧٢ .

[3] نصر محمد عارف ، الحضارة ، الثقافة المدنية ، دراسة السير المصطلح ودلالة المفهوم ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢، فرجينيا ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٩٩٤ ، ٢ ، ص ٥٧.

[4] المصدر نفسه، ص ٣٣ – ٣٤.

[5] قسطنطين زريق ، في معركة الحضارة ،ط٢، دار العلم للملايين ، بيروت، ١٩٨١ ، ص ٣٤ – ٣٥.

تخطي هذه العقبة، فإن الاختلاف ينشا من جديد عندما يحاول الباحث تقديم تفسير لظهور الحضارة، وأسباب انحطاطها و زوالها ، وهي مشكلة تهون معها المشكلات السابقة . و في خضم هذه التغيرات التي تختلف في المنطلقات والنتائج، ظهرت فلسفة الحضارة كمبحث جديد يتعامل مع هذا الموضوع بروح فلسفية، مستهدفا كشف القوانين المتحكمة في سير الأمم بموضوعية وبنظرة كلية ما وسعه من الجهد [1].

فلا يمكن إذن رد الحضارة إلى عامل الجنس ، وإن كان له من دور ، فلا يتعدى دور التهيئة ، بمعنى أن الفعل الحضاري قد يكون موجودا في العرق كاستعداد ، فإذا صادف البيئة الملائمة سيتحقق الفعل الحضاري ، لقد تعرضت النظرية العرقية إلى ردود عنيفة من مفكرين و فلاسفة ورجال دين وسياسة وكان الرفض مبني على عدم وجود عرق مؤثر في الحضارة ، متميز بنقائه. كما عرفت تراجعا، بسبب اقترانها بالاستعمار، و الأحزاب السياسية المتطرفة.

المطلب الثاني: موقف لوبون من تفسير الحضارة :

تذكر بعض الدراسات المفكر الفرنسي غوستاف لوبون أحيانا إلى جانب غوبينو وهردر ونيتشه ، وذلك باعتباره أحد منظري النظرية العرقية ، ومن الداعين للتمييز العنصري بين الأجناس ، وقد تم الوقوف على جزء منها ، عندما كان الحديث بصدد أسباب إهمال غوستاف لوبون ، ويضاف إليها هنا ما جاء في كتاب " تاريخ الحضارات العام ، يقول روبير شنيرب Robert Schnerb أن غوستاف لوبون: يرى التصالب أو التهجين يذهب بصفات الجنس المميزة [2].

والإحالة في قول شنيرب ، جاءت في معرض الكلام عن النظرية العرقية ، لكنها تركت انطباعا بأنه أحد ممثلي هذه النظرية . وبالفعل إن القراءة المتسرعة للوبون ، قد تؤدي إلى مثل هذا الفهم ، فعندما يقول : " من الصواب أن اجتنبت الأمم التي بلغت درجة رفيعة من الحضارة مخالطة الأجانب ، ولولا نظام الطوائف العجيب ، لرأى لفيف الآريين الذي استولى على الهند نفسه ، غارقا بسرعة في جماعة السود " [3]، حيث يلاحظ في هذا القول ، استحسانا واضحا للنظام القائم على الطبقية في الهند ، ويرى أن هذا النظام ، هو الذي حافظ به المستعمر الإنجليزي على نقاء دمه ، وهذا مكنه من إحكام قبضته على الهنود . ثم يُلاحظ انه لا يخفي تأييده للمستعمرين ، بل ويجتهد من اجل العثور على أفضل السبل لاستغلال الشعوب الضعيفة ، وقد قدم في هذا المجال ما أطلق عليه اسم القواعد الذهبية للاستعمار [4]، وها هو يتكلم عن

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، ج١، من المجلد الأول، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٨، ص ٤.

(2) روبير شنيرب ، تاريخ الحضارات العام ، القرن ١٩ ، إشراف ، موريس كروزيه ، المجلد ٦ ،(د.ت)، ص ٥٦٥.

(3) غوستاف لوبون ، السنن النفسية لتطور الأمم ، ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف ، مصر، ٢٠١٤، ص ٦٦.

(4) Catherine Rouvier ، les idées politiques de Gustave le bon، op.cit ، p 144.

الاستعمار الإنجليزي من باب الافتخار والمدح ، فقال : " من المهم أن يعرف في هذا الزمن الذي يتحدث فيه الناس عن الاستعمار ، كيف استطاعت أمة أوروبية ، أن تسيطر بألف موظف ، وستين ألف جندي على إمبراطورية مؤلفة من ٢٥٠ مليون شخص " [1].

وإن تطلب الأمر لا يمانع في إبادة المستضعفين في المستعمرات على طريقة لِنْش * فيعدم بها الزنوج رميا بالرصاص أو شنقا عند أول جرم مزعج يقترفونه ".

التاريخ حافل بأخبار الأمم والحضارات التي كان لها نصيب من التقدم والازدهار، لكنها لم تتمكن فيما يروي التاريخ ، من تجنب السقوط ، فاستسلمت في النهاية ، إلى الانهيار الذي أتى على كل عناصرها ، ولم يترك إلا بعض الآثار التي تكفل باطن الأرض بحفظها ، وقد تباينت الآراء حول شروط ظهور الحضارة ، و عوامل انهيارها ، ويعود سبب تضارب الآراء في مشكلة الحضارة ، إلى اختلاف المنطلقات الفكرية لأصحاب هذه المحاولات [2].

وهنا يقدم غوستاف لوبون البديل في هذا المجال، لقد وصل به البحث في موضوع الحضارة، إلى التركيز على احد العوامل ، الذي كان يظهر إلى جانب العوامل المختلفة للحضارة، في أعمال فلاسفة التاريخ ، إلا أنهم كانوا لا يتوقفون عنده كثيرا ، الا وهو العامل النفسي ، لكن عندما جاء غوستاف لوبون ، جعل فلسفة الحضارة تتمحور حول هذا العامل [3].

المبحث الثالث: شروط الحضارة عند غوستاف لوبون

لقد ظهر لوبون في فترة عرفت فيها الدراسات النفسية تقدما متسارعا، ومن ذلك ما وصل إليه علماء الطباع، من القول بان الأفراد ، تتحكم فيهم سلوكياتهم وطباعهم الموروثة . فأراد لوبون أن ينقل هذه الحقائق، إلى مستوى أكبر ، جاعلا للأمة طابع نفسي عام ، على غرار ما يتميز به الأفراد من طباع خاصة.

الكشف عن ظهور العرق التاريخي والتعرف على طبقاته وأنواعه وعلاقته بالوراثة واللاشعور، لم يكن هدفا في حد ذاته عند لوبون. لأن هذا المفكر كان يبحث عن الشروط التي تتحكم في تطور الأمم، والعوامل التي تقف وراء ظهور الحضارة، لكن ولأسباب منهجية أراد أن يحيط بالكيان الذي تتوفر فيه هذه الشروط ، وهنا كان مع مصطلح العرق التاريخي كبديل لمصطلحي الشعب والأمة ، ثم انتقل بعد ذلك إلى البحث في شروط الحضارة ، فوجد أنها تتكون من أربعة عناصر أساسية، وهي الإنسان و الزمن والأفكار والبيئة ، وهي نفسها الشروط التي نجدها لدى أغلب

---

[1] غوستاف لوبون ، حضارات الهند ، ترجمة: عادل زعيتر ، ط١، دار العالم العربي ، القاهرة ، ٢٠١٠ ، ص ١٥.

(*) شارل لنش (١٧٩٦ – ١٧٣٦) م ، قاضي أمريكي.

[2] غوستاف لوبون ، السنن النفسية لتطور الأمم، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٩ .

[3] المصدر نفسه ، ص ١٣٠ .

فلاسفة التاريخ ، لكنه خالفهم في اهتمامه الكبير بتقصي البعد النفسي في هذه الشروط ، وأولها الإنسان [1].

المطلب الأول : الإنسان

بما أن غوستاف لوبون طبيب ، فإنه درس الإنسان في بعده البيولوجي ، ثم أطلع فيما بعد على بعديه النفسي والاجتماعي ، و المهم الآن ، ليس البحث في طبيعة الإنسان عند هذا المفكر ، وإنما الهدف من ذلك هو التعرف على موقفه من دور الإنسان في الحضارة ، وهو موضوع مازال الجدل قائم حوله ، بين من ينظر إلى الإنسان ، بوصفه شيء خاضع للمشيئة الإلهية [2]، أو خاضع للحتمية البيولوجية كما هو عند اشبنغلر Spengler Oswald (١٩٣٦ – ١٨٨٠ م) [3]، الذي لا يرى فارق بين تاريخ الإنسان أو تاريخ الحيوان ، أو تاريخ شجرة ، أو زهرة . وبين من يرفع من قيمة الإنسان، ويرى أن الحضارة متوقفة على ما يصدر عنه من نشاط، كما هو عند فلاسفة الأنوار [4]، فإلى أي الموقعين يميل غوستاف لوبون ؟

لم يؤيد لوبون نظرية العناية الإلهية ، فذكر ذلك وهو بصدد التأكيد على الدور الذي يقوم به الطبع النفسي ، فقال : " قد يعبر عن الطبع بالمصادفة وهي عاجزة ، وقد يعبر عنه بالعناية الإلهية الوهمية [5].

كما رفض التفسير العرقي للحضارة أيضا، معتبرا إياه شكلا من أشكال التعصب والعنصرية. وبدل ذلك نجده يبقي الباب مفتوحا على الإبداع أمام جميع البشر لكنه أشار لوجود ضوابط معينة تخص الإبداع ، ينبغي الالتزام بها ، ومراعاتها من طرف كل عرق يريد التقدم والازدهار ، ويمكن تلخيص هذه الضوابط في وجوب العمل المتواصل من طرف عرق معين ، على امتلاك الصفات النفسية الجيدة ، مثل التضحية والإرادة والشجاعة وغيرها من الصفات التي يتميز بها الطبع النفسي . ثم العمل على نقلها من جيل إلى آخر عن طريق التوالد البيني، مادامت الصفات النفسية عند لوبون " كالصفات التشريحية تنتقل بالوراثة انتقالا منتظما مستمرا [6]".

---

(1) غوستاف لوبون، السنن النفسية لتطور الأمم ، مصدر سبق ذكره، ، ص ١١.

(2) Catherine Rouvier ، les idées politiques de Gustave Le Bon،op.cit ، p 36 – 37.

(3) يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة في العصر الوسيط ، دار المعارف ، القاهرة ، د ط ، د ت ، ص ٤٢.

(4) محمود الشرقاوي ، التفسير الديني للتاريخ ، مؤسسة دار الشعب الصحافة والطباعة والنشر القاهرة ، د ط ، د ت ، ص ٥٥ .

(5) اسوالد اشبنغلر ، تدهور الحضارة الغربية ، ترجمة: أحمد الشيباني ،ج١، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر ، بيروت ، دط، دت ، ص ٢١٣.

(6) احمد محمود صبحي ، في فلسفة التاريخ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، دط ، ١٩٩٦ ، ص ١٧٩ .

ثم تترسب هذه الصفات في أعماق العرق، وفي النهاية يستطيع الأفراد القيام بأعمالهم بدافع داخلي، وفي الغالب لا شعوري [1].

وهنا يتم الوقوف أمام شروط معقدة يقدمها لوبون، سواء في مرحلة تكوين العرق التاريخي ، أو عند المحافظة على مكاسبه ، ونفس الشيء في مرحلة الإبداع ، ويرى أن التهاون في هذه الشروط لا يحقق إي تقدم حضاري[2].

وهنا نلاحظ أنه في الوقت الذي يرفع فيه من قيمة الإنسان، ويرى أنه بإمكانه التحكم في مصيره، نجده في المقابل يضع هذه الضوابط المعقدة ، والتي تجري في عالم هو أبعد ما يكون عن دائرة نشاط الإنسان ، والمقصود هنا عالم الخلية والجينات.

فكيف يمكن للإنسان التحكم في مصيره مع وجود هذه الشروط البيولوجية؟ إن الإجابة على هذا السؤال يجعل من الصعب تصنيف غوستاف لوبون ضمن القائلين بفعالية الإنسان، بل هو اقرب ما يكون إلى القائلين بتهميش الإنسان، مادامت الحضارة هدية يتلقاها الأفراد من أسلافهم . لكن البحث المعمق في مؤلفات لوبون يؤكد أن الحضارة عنده يصنعها الإنسان، ولكن ليس كما هو الحال عند فلاسفة الأنوار، إنه يؤمن بقدرة الإنسان على الفعل الحضاري، في إطار العرق. لأن الصفات النفسية المنتجة للحضارة، يكون العرق التاريخي قد حصل عليها بما ورثه عن أسلافه، ومن هنا يكون الإنسان فعال في الحضارة، ولكن في حدود ما تسمح به الصفات النفسية الموروثة، والتي ساهمت في وجودها أجيال عديدة [3].

لذلك يرى أنه لا داعي للتسرع الذي تبديه بعض الأمم، في سعيها للنهوض الحضاري، لأن التحضر يتكفل به الزمن ، وما يمكن أن تقدمه هذه الأمم ، هو السعي الحثيث من أجل تكوين صفات نفسية مبدعة ، وفي الوقت الذي تتشكل فيه هذه الصفات ، يكون العرق على موعد مع الحضارة بشكل حتمي[4] .

إذن لوبون يقر بدور الإنسان في تشيد الحضارة، وينفي وجود قوى خارجية تسيطر على ما يصدر عنه من سلوك ، لكن عدم وجود هذه القوى الخارجية ، لا يعني أن الإنسان عندما يبدع ، يكون خاضعا لإرادته الحرة فقط ، بعيدا عن كل إكراه ، هذا غير ممكن عند لوبون ، في ظل وجود قوى داخلية تمارس تأثيرها على سلوك الإنسان ، وهي قوى ليست خارقة ، إلا أنها تعمل

---

(1) غوستاف لوبون ، السنن النفسية لتطور الأمم ، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠ .

(2) المصدر نفسه ، ص ٣١ .

(3) Gustave Le Bon ، Bases scientifiques d'une philosophie de l ' histoire ، p 43.

(4) غوستاف لوبون حضارة العرب ، ترجمة : عادل زعيتر ، دار التراث العربي – بيروت ، ١٩٥٦، ص ٢٣.

عمل القوى الخارجية ، فتتحكم في مصيره. وكان يقصد بتلك القوى ، الصفات النفسية التي يرثها الخلف عن السلف ، لهذا كان يكرر القول بأن الأموات يتحكمون في الإحياء[1].

وهنا يظهر التساؤل التالي : أين فعالية الإنسان إذا كان مسير بواسطة ما تركه الأسلاف بمقتضى العناية الإلهية أو بما تفرضه الوراثة ؟

لكن عندما يتضح أن الإنسان هو الذي وضع البذور الأولى لهذه الصفات النفسية منذ أزمنة طويلة، يتضح الفرق بين موقف القائلين بالعناية الإلهية وموقف لوبون . كما أن الإنسان الذي يسير بمقتضى الوراثة له هامش من الحرية يتحرك فيه، يمكنه من إحداث تغيير في سلوكه ، ولو بطيء ، لكن مع مرور الزمن ستتراكم هذه التغييرات الطفيفة ، لتكون في النهاية تغيير طفيف ذا طابع جديد مختلف عما كان عليه السلف ، وهنا يتم التوصل إلى نتيجة ترتبت عن موقف لوبون، وفحواها أن الإنسان كفرد مسيّر في أغلب الأحوال ، خاصة المصيرية منها ، بما تحتويه خلاياه من صفات وراثية ، أما العرق الذي ينتمي إليه ، فيمكنه إحداث التغيير المطلوب في صفاته النفسية وطباعه خلال الأجيال المتعاقبة[2].

المطلب الثاني: الزمن

الإنسان هو أكثر الكائنات وعيا بالزمن، وقد تزايد هذا الوعي مع اختراع الساعة التي مكنته من التعامل مع الوقت بصورة موضوعية [3]، ويعرف الزمن بكونه" المدة الواقعة بين حادثتين، أولهما سابقة وثانيهما لاحقة"[4].

وقد عرفت البشرية تصورات متباينة لطبيعة الزمن وحركته، فكان الإغريق يعتقدون أن الزمن يسير في حركة دائرية ، وقد نجم هذا التصور عن ملاحظتهم لحركة الكواكب والأفلاك ، ومن هنا نشأ عندهم ما يعرف بالعود الأبدي [5].

وبمجيء الديانات السماوية، أصبح للوقت بداية، وهو في تقدم مستمر نحو النهاية التي أخبرت عنها الكتب السماوية.

ونفس التصور عن الزمن تجده في عصر النهضة لدى فلاسفة الأنوار، ثم جاء العلم التجريبي ليكرس فكرة التقدم التي تميز حركة الزمن . حين أكدت التجارب في حقل الديناميكا

---

(1) Gustave Le Bon ، La Revolution francaise et la psychologie des revolutions، p 28.

(2) غوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، ترجمة و تقديم :هاشم صالح ، ط١، دار الساقي –بيروت – لبنان، ١٩٩١، ص٨٢.

(3) Gustave Le Bon ، Bases scientifiques d'une philosophie de l ' histoire ، p 141.

(4)Gustave Le Bon ، La Revolution française et la psychologie des revolutions، p 49.

(5) كولن ولسون ، فكرة الزمان عبر التاريخ ، ترجمة : فؤاد كامل ، مراجعة: شوقي جلال ، عالم المعرفة – كويت ،١٩٩١، ص ٣٩.

الحرارية ، أن الظواهر الحرارية غير قابلة للارتداد إلى الوراء ، وأن الحرارة تنتقل دائما في اتجاه واحد.من الجسم الساخن إلى الجسم الأبرد [1]، و بهذا اتضح أن الزمن لا يلتفت إلى الخلف أبدا ، وهو التصور نفسه الذي ذهب إليه لوبون . لكن نظرته للزمن كانت أعمق، لأنه لا ينظر إليه على أساس أنه مجرد تتابع لحركات الأشياء، بل هو أكبر من ذلك ، يقول في قيمة الزمن : "الشخص الذي يمتلك القوة السحرية للتحكم بالزمن والتلاعب به ، سوف يمتلك الجبروت الذي يعزوه المؤمنون لإلهتهم [2].

يتضح من هذا أن الزمن له دخل في كل ما يحدث في العالم، بل القول يشير إلى عملية الخلق، وهذا ما أكده في قوله: إن الزمن يمثل المولد الحقيقي ، والمدمر الكبير الذي بنى الجبال من حبات الرمال ، ورفع إلى مستوى الكرامة البشرية ، تلك الخلية الحية الصغيرة عبر الأزمنة الجيولوجية [3].

ولما كانت هذه الدراسة بصدد البحث عن الشروط النفسية للحضارة عند لوبون ، فإن الزمن الذي يظهر أثره في كل شيء ، لا يمكن أن يغيب عن الإبداع الحضاري ، بل الأمة المبدعة للحضارة في حد ذاتها ، ما كانت لتكون لولا عامل الوقت . فكل أمة في حاجة إلى زمن كافي حتى تتشكل ، ومن ذلك أن العرق الفرنسي حسب لوبون ، اقتضى ظهوره مرور أكثر من عشرة قرون ، حتى أصبح على ما هو عليه الآن [4].

ولن يتوقف دور الزمن عند حدود إيجاد الأمة، بل يعمل على تكوين مختلف الأنظمة والأفكار السائدة فيها ، يقول لوبون : " إن الزمن هو الذي يطبخ أراء و عقائد الجماهير على ناره البطيئة"، بمعنى أن يهيئ الأرضية التي ستنشأ عليها وتبرعم [5].

المطلب الثالث: تأثير التراث والنظم السياسية والأخلاقية على تطور الحضارة

كما مر سلفا يعتقد غوستاف لوبون لكي يحدث تغيير في العروق لابد وأن يمر زمنًا طويلًا، كما أنه من الصعب أن تمتزج العروق إذا كانت مختلفة إختلافًا كبيرًا، ومحاولة البعض إحداث التغيير بالتربية لن يؤدي إلا إلى الإنحدار، فالقرون وحدها هي القادرة على فعل هذا التغيير.

---

[1] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج ١، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان، ١٩٨٢، ص ٦٣٦.

[2] يمنى طريف الخولي ، الزمان في الفلسفة والعلم ، ط ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٩ ، ص ٤٤ .

[3] المصدر نفسه، ص ١٤٨.

[4] غوستاف لوبون ، السنن النفسية لتطور الأمم ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤٨ .

[5] Catherine Rouvier، les idées politiques de Gustave le bon ،op.cit، p 81.

فالتاريخ عندما يسرد تلك التغييرات فإنه يحاول أن يظهر أن التغيير حصل مباشرة بسهولة بظهور عادة أو فكرة أو نظم جديدة أو دين جديد ورسول، ولكن الحقيقة غير ذلك، فبالنظر لانتشار الديانات مثلًا نجد أن أسماء الأشياء هي التي تتغير ولكن الحياة نفسها لا تتغير بسهولة تظل تسيطر عليها أشكالها القديمة، فالديانات ومنهم الدين الإسلامي مثلًا انتشر في بقاع كثيرة ولكن لو نظرنا عن كثب للأمم التي انتشر فيها نجد أنهم لا زالوا متمسكين ببعض التقاليد القديمة، ولم يحدث التغيير الكامل بهم، وما قيل هنا عن المعتقدات يمكن أن نقوله أيضًا عن النظم، فهي عندما تنتقل من عرق لآخر فلابد وأن تتغير وتتأثر به حتى مع بقاء المسميات كما هي، فالأمم المختلفة لاختلاف مزاجها النفسي لا تبقى على نظام واحد لزمن طويل.

إن تقبل أمة ما لأي تغيير يحدث سواء في الدين أو النظم أو اللغات او غيره ليس سهلًا وليس فجائيًا كما تحاول كتب التاريخ أن تظهره، فهي تحتاج لتراكمات زمنية طويلة ومستمرة، كما أنها لا تنتقل كما هي ولابد وان يصيبها التغيير بحسب مزاجها النفسي..[1]

- ✓ **الدين**

يحدد غوستاف لوبون هذه الخصائص، ويرى أن كل إيمان بها ومهما كان شكله ، فإنه يرقى إلى درجة الأديان ، حتى ولو كان حزب سياسي ، وقد جمعها فيما يلي : أولا عبادة الذات التي يعتبرها أتباعها خارقة للعادة ، والخوف من القوى التي تعزى إلى هذه الذات ، والخضوع الأعمى لأوامرها ، و استحالة أي مناقشة لعقائدها ، والرغبة في نشر هذه العقائد ، والميل لاعتبار كل من يرفضون تبنيها بمثابة أعداء [2].

هذه الخصائص إذا توفرت لأي شخص أو جماعة ، ستكون له سيطرة كبيرة جدا على حياة المؤمنين بها ، وأهم هذه الخصائص عند لوبون هي عدم مناقشة العقائد ، أي تجنب إعمال العقل وممارسة النقد في قضايا الدين ، وأي محاولة من هذا القبيل مالها الفشل ، يقول لوبون : " وما تأثير البرهان فيها إلا كتأثيره في الجوع والعطش ، فالمعتقد إذا نضج في منطقة اللاشعور ، حيث لا يصل إليها العقل ، عاناه المرء غير محاج فيه و يفهم من هذا أن الدين لا ينسجم مع التفكير المنطقي ، وقيمته تكمن في فعاليته ، وفي ما يتركه من أثار بارزة للعيان عندما تأخذ عناصر الحضارة في هذا العرق طابع الدين المنتشر فيها ، سواء في نظمها السياسية والاقتصادية ، أو على مستوى الفنون والعمران والعلوم [3].

---

[1] غوستاف لوبون ،السنن النفسية لتطور الامم ،مصدر سبق ذكره.

[2] غوستاف لوبون ، السنن النفسية لتطور الأمم ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٥٢.

[3] فراس السواح ، دين الانسان، ط ٤، دار علاء الدين للنشر و التوزيع و الترجمة ، دمشق ، ٢٠٠٢، ص ٣١٣.

لذلك عند البحث في الحضارة يجب وكما يقول قسطنطين زريق:" سبر غور الدين السائد فيها وإدراك روحه، وعقائده ونظمه[1]، لأن الدين ينعكس على حياة المتدين، ويقول لوبون في هذا:" على الفرضيات العلمية يقوم صرح معلوماتنا ومعارفنا، وعلى الفرضيات الدينية شيدت أركان جميع المدنيات[2]، هذا هو الدين عند لوبون وهذه طبيعته وكيفية ظهوره ومصدر قوته، وسيبقى يمد العرق الذي يؤمن به بأسباب القوة و عوامل

الانتصار والتقدم، شرط الالتزام بعدم الجدل في تعاليمه والحفاظ على مبادئه مهما كانت متناقضة مع المنطق العقلي، في منأى عن كل نقد، وأي إخلال بهذا الشرط يعني أن هذه العقيدة في آخر مراحلها، وأنها في طريقها إلى الزوال ، لتحل محلها فكرة دينية أخرى، ودائما مصدرها الإنسان، لكنها تتميز بنفس القوة التي كانت تملكها الفكرة الدينية السابقة، إذا التزمت الشروط اللازمة، لأنه كما قال لوبون: ليس للإيمان عدو يخشاه سوى الإيمان[3].

✓ **العادات والتقاليد**

العادات والتقاليد عوامل لا يمكن إهمالها في ظهور الحضارات عند غوستاف لوبون، لأنها تلعب دورا مرجحا في حياة المجتمع، وتخلق وحدة التفكير وتشكل وحدة الفعل ، ولا توجد حضارة بدونها ، وكل شعب فقد عاداته التي تقوده في نشاطه سيتذبذب وتقوده الصدف حسب إرادتها ، ثم يسقط في الفوضى ، وبدون العادات والتقاليد التي توجه حياة الإنسانية ، لن يكون هناك تاريخ . لكن هذه العادات والتقاليد لن تتمتع بهذه المزايا ما لم تهبط إلى عالم اللاشعور، شانها شان الدين والعواطف [4].

وبالنظر إلى أهمية العادات والتقاليد عندما تستقر في أعماق اللاشعور، يوصي لوبون المشرعين عندما يضعون القوانين التي تنظم حياة الناس، بضرورة الالتفات إلى العادات والتقاليد. لأن هذه الأخيرة، سيكون لها احترام أكبر، لما تبرز في صيغة قانون، كان معهودا عند الأفراد. أما إذا اجتهد المشرع وحاول وضع قوانين تتناقض مع العادات والتقاليد السائدة، فإنها لن تكون فعالة، لذلك إذا أريد للقانون أن يكون فعال، يجب أن يقنن العادات فقط لا أن يتقدمها، لأن القانون عند لوبون وجد ليعزز ويدعم العادة الموجودة وليس لينشا عادات [5]، وفي هذا يقول " إن

---

[1] ول ديورانت ، قصة الفلسفة، ترجمة : زكي نجيب محمود ، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب– القاهرة ، ١٩٩١، ص ٢٨٩.

[2] غوستاف لوبون ، الآراء و المعتقدات، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، القاهرة، ١٩١١، ص ٧.

[3] غوستاف لوبون ، سيكيولوجيا الجماهير ،مصدر سبق ذكره، ص ٩١ .

[4] غوستاف لوبون ، الآراء والمعتقدات ، مصدر سبق ذكره، ص ٨ .

[5] قسطنطين زريق ، في معركة الحضارة ، مصدر سبق ذكره، ص ٩٥ .

العادة هي التي تملي علينا كل يوم ما يجب أن نقوله ونفعله ونفكر فيه"، والأهمية التي يوليها لوبون للعادات والتقاليد، لا تعني أنه يجهل خطرها المدمر عندما تتحول إلى عائق يقف أمام التجديد الضروري الذي يضمن استمرار الأمة [1].

✓ **الأخلاق**

إن الحضارة هي الشكل الأكثر أصالة وواقعية للمجتمع البشري، فهي نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وتتكون من عناصر أربعة هي: الموارد الاقتصادية، النظم السياسية، التقاليد الخلقية، العلوم والفنون[2].

إن المظاهر الحضارية لكل أمة هي نتائج ملائمة لمجموعة الأفكار والعقائد والتقاليد والعوامل النفسية المهيمنة عليها، وذلك لأن لكل حضارة من الحضارات الإنسانية أسس فكرية ونفسية، شكلت الدافع الرئيسي والقوة الموجهة والمحددة لنمط سيرها.

وقد سعى الفلاسفة بدورهم إلى وضع قوالب تصب فيها أخلاق الإنسان الفاضل على نحو ما تصوروه في ذلك الوقت، حيث كان ينظر إليه على أنه (مجموعة قوى ذات مطالب يناقض بعضها البعض، ويقوم بينها حرب شعواء لا تنتهي إلا بانتصار بعضها واستسلام البعض الآخر عنوة)، فقد كان الإنسان نفسه، كما تقول الأديان ، يتألف من جسد وروح، أما الجسد فهو الجانب المادي فيه، وأما الروح فهي الجانب المقدس، ومن هنا كانت المشكلة في أن يجعل الروح هي المسيطرة، وهي القائد، وأن يجعل العقل هو القاهر لكل نوازع الجسد.

وهنا يظهر السؤال التالي ما المقصود بسيادة العقل على النوازع الإنسانية؟ فالمقصود هو أن الأفراد والجماهير على السواء، يجعلون إرادتهم موجهة للخير المادي والروحي للكل وللأفراد الذين يتألف منهم الكل، يعني هو أن تكون أفعالهم أخلاقية، فالتقدم الأخلاقي إذن هو جوهر الحضارة حقاً، وليس له غير معنى واحد، أما التقدم المادي فهو أقل جوهرية، ويمكن أن يكون له أثر طيب أو سيء في تطور الحضارة، وهذا التصور الأخلاقي للحضارة سيبدو غريباً عند بعض الناس بوصفه عقلياً وعفى عليه الزمان، فالذي يتفق أكثر مع روح هذا العصر هو النظر إلى الحضارة على أنها مظهر طبيعي للحياة خلال التطور الإنساني، له تعقيداته المفيدة كل الإفادة.

وبالنسبة لغوستاف لوبون تستهدف الأخلاق، بوجه عام، دراسة اتجاه الفاعلية البشرية للكشف عن المبادئ والقيم، التي تحدد السلوك وتدبره، فهي تتناول – مبدئياً – مسألة تنظيم الحياة تنظيماً عملياً، وتسعى إلى تبيان مغزى التجربة الإنسانية بالإضافة إلى كل فرد من الأفراد، فتعتبر الوجود الفردي – كل وجود – وجهة نظر معينة تمس الواقع في الواقع، وتبدو في حالة تأليف يشمل

---

[1] غوستاف لوبون ، اختلال التوازن العالمي ، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٦

[2] ويل ديورانت،: قصة الحضارة مصدر سبق ذكره ، ص3.

ظروفاً يطبعها الشخص الأخلاقي بطابعه، فتغدو الأخلاق، أخلاق المرء، تعبيراً عن ذاته من خلال جريان الحوادث، وتتعين رسالة الأخلاق في فهم الأشكال المختلفة التي تحقق هذا التعبير[1].

بيد أن الأخلاق تجنح إلى الحكم على أشكال السلوك الكثيرة المتفاوتة، فتحبذ موقفاً من المواقف وتستحسنه، وتذم موقفاً آخر وتستقبحه، تأمر وتنهى، تبيح وتمنع، فتحدد بوجه الإجمال أنماط السلوك تحديداً منهجياً واعياً.

ويظهر هنا السؤال التالي؟ كيف حدث أن فقدت فكرة أن الأخلاق لها أهمية وقيمة حاسمة بوصفها جزءاً من الحضارة؟ يكون الجواب أن كل محاولات التحضر كانت حتى الآن عمليات تعمل فيها قوى التقدم في كل مرفق من مرافق الحياة؛ فتوالي الإنجازات الكبرى في الفن والمعمار والإدارة والاقتصاد والصناعة والتجارة كانت تدفعها قوة دافعة روحية أنتجت تصوراً أعلى للكون. وكل جزء أصابه مد الحضارة ظهر في النواحي المادية، كما ظهر في النواحي الأخلاقية والروحية، وفي الأولى أبكر منه في الثانية، ففي الحضارة اليونانية حدث توقف مبكر منذ زمن أرسطوطاليس، توقف في العلم والسياسة غير مفهوم، بينما لم تبلغ الحركة الأخلاقية تمامها إلا في القرون التالية، وذلك بما قامت به الفلسفة الرواقية من عمل عظيم في التربية، والرواقية ليست من وضع مفكر واحد، بل هي مذهب تكوّن مع الزمن ووضع أسسه زينون السبتي.

أما الحضارة الإسلامية فهي الحضارة التي تشتمل أسسها الفكرية والنفسية على حاجات الحياة كلها من مختلف جوانبها الفكرية والروحية والنفسية والجسدية والمادية الفردية والاجتماعية، وفي جميع المجالات العلمية والعملية. لذلك فقد كانت تمنح الأمم التي تلتزم بها وتسير على نهجها سيراً قوياً، الصورة المثلى للحضارة الإنسانية الراقية[2].

وقد استطاعت أسس هذه الحضارة ووسائلها ومناهجها أن تدفع الأمة الإسلامية في حقبة من الدهر للارتقاء في سلم الحضارة المجيدة المثلى، على مقدار التزامها بأسسها ووسائلها ومنهجها السديد، وكانت نسبة الارتقاء الذي أحرزته هذه الأمة نسبة مدهشة إذا ما قيست بالزمن والطاقات التي تيسرت لها حينذاك، واستمرت في ارتقائها المدهش حتى أدركها الوهن والابتعاد عن هذه الأسس ووسائلها الفعالة ومنهجها السديد..

أما في القرون الوسطى، فقد كان معظم المفكرين والفلاسفة الأوروبيين يبحثون الأمور الفلسفية من خلال العقيدة والدين المسيحي، لذلك حددوا علاقة الإنسان بذاته وبما يحيط به، من خلال علاقته بالله، (وقد سعوا إلى كبت الطبيعة البشرية، وفصل الإنسان عن ذاته الإنسانية،

---

[1] غوستاف لوبون : سيكولوجيا الجماهير ،مصدر سبق ذكره،ص101

[2] مصطفى البغا: بحوث في نظام الإسلام: ط1،مج 1،(سوريا– جامعة دمشق ،1998)، ص459.

وترسيخ اغترابه عنها، وتشتيت قواه، ولجم تطلعاته، وتكريس تبعيته)، وكل هذا لأنهم اعتبروا هذه الطبيعة من الفساد والتشتت بحيث أنها بحاجة إلى تقويم وضبط.

أما دول أوربا العصور الوسطى قد دخلت جنباً إلى جنب كوريثة للعالم اليوناني والروماني، وعاشت جنباً إلى جنب في اتصال حر كأوسع ما تكون الحرية خلال عصر النهضة وعصر التنوير وعصر الفلسفة الأحدث، وفي حركة التحضر التي بدأت مع عصر النهضة كانت هناك قوى مادية وروحية وأخلاقية تعمل للتقدم جنباً إلى جنب، وكأنما ينافس بعضها بعضاً، واستمرت الحال على هذا النحو حتى بداية القرن التاسع عشر، هنالك حدث ما لم يكن له من قبل نظير؛ إذ تبددت الطاقة الأخلاقية في الإنسان، بينما تزايدت الفتوحات التي قامت بها الروح في الميدان المادي. أما حضارة القرون الحديثة التي بدأت منذ أواخر القرن الثامن عشر للميلاد، واستمرت في نموها المادي تمتد وتنتشر من مهدها في أوروبا إلى كثير من بلاد العالم، فأسسها قائمة على تمجيد العلوم المادية، والاستفادة من جميع الطاقات الكونية الكامنة والظاهرة، لخدمة الجسد ومنحه وافر الرفاهية والمتعة واللذة، واختصار الزمن له وتقريب المسافات، وتخفيف الجهد عنه ودفع الآلام الجسدية، وقائمة أيضاً على الرغبة ببسط السلطان على الشعوب واستغلال خيراتها وإعداد القوة الكفيلة بتحقيق ذلك بدءاً واستمراراً.

ولذلك نلاحظ أن مظاهر هذه الحضارة الحديثة ذات صلة وثيقة بهذه الأسس، إذ أثمرت لإنسان هذه القرون الحديثة ولمن يأتي من بعده، مجموعة كبيرة جداً من العلوم المادية المتطورة المتقدمة، ومجموعة ضخمة من المبتكرات والمخترعات، التي أفادت الإنسان في مختلف نواحي مطالبه المادية السلمية والحربية، ومجموعة ضخمة من النظم والتشريعات الوضعية، التي ساهمت في تنظيم علاقات الناس أفراداً وجماعات وأمماً وشعوباً ودولاً، كما أثمرت له ذخائر كبيرة جداً من القوى الحربية الدفاعية والهجومية[1].

ولا بد أن يلاحظ الباحثون المنصفون في هذه الحضارة الحديثة، أن أسسها الفكرية غير شاملة لحاجات الحياة كلها، وذلك لإهمالها جوانب مهمة من حياة الإنسان الروحية والخلقية والسلوكية، ولاستهانتها بالجوانب الفكرية العليا، المتصلة بمنشأ الإنسان والغاية من وجوده، فبعض الفلاسفة والمفكرين كالفيلسوف (كنت) أقام فهمه للإنسان على أساس عقلي خالص، واعتبر الإنسان غاية في ذاته بغض النظر عن جنسه أو دينه أو مركزه الاجتماعي، ولذلك وضع مجموعة من المبادئ التي لا تفرض على الإنسان بما هو إنسان، ما الذي يجب أن يفعله، بقدر ما تحلل سلوكه الأخلاقي على نحو ما ينبغي أن يكون، كما وضع أهم قاعدة أخلاقية عرفتها البشرية منذ ظهور

[1] حنا الفاخوري ، خليل البحر :تاريخ الفلسفة العربية ،ج 1 ،(بيروت – لبنان ،دار الجيل،1993)،ص94

الديانات، وهي (افعل الفعل بحيث تعامل الإنسانية في شخصك وفي شخص كل إنسان سواء بوصفها دائماً وفي نفس الوقت غاية في ذاتها، ولا تعاملها كما لو كانت مجرد وسيلة[1].

ويؤكد غوستاف لوبون إن التقدم الخلقي في التاريخ يتمثل في تحسن التشريع الأخلاقي بمقدار ما هو متمثل في توسيع الدائرة التي يطبق فيها، فأخلاق الإنسان الحديث ليست بالضرورة أسمى من أخلاق البدائي، ولو أن التشريعين الخلقيين قد يختلفان فيما بينهما من حيث المضمون والتنفيذ والأداء، لكن الأخلاق الحديثة في هذه الأيام تتسع نطاقاً بحيث تشمل عدداً أكبر من الناس عن ذي قبل، ولو أن المدى الذي يطبق في حدوده التشريع الخلقي قد أخذ يضيق منذ العصور الوسطى نتيجة لنشأة القوميات.

إذ لا يمكن للحضارة أن تتجدد إلا إذا نشأت في عدد من الأفراد نزعة عقلية جديدة مستقلة عن تلك السائدة بين الجمهور وفي تعارض وإياه، نزعة عقلية تكتسب التأثير تدريجياً على النزعة الجماعية، وفي النهاية تطبعها بطابعها، ولا سبيل إلى النجاة من الهمجية إلا بحركة أخلاقية.

الخاتمة والاستنتاجات

من خلال ما تم عرضه من مراحل إعداد هذا البحث، ومن هذا المنطلق تم التوصل الى عدة نقاط تعدّ استنتاجات مستخلصة من البحث، وهي كالآتي:

1. اعتبر غوستاف لوبون الحضارة بأنها أرفع تجمع ثقافي للبشر وهي اشمل مستوى للهوية الثقافية لا يفوقه من حيث تحديده للهوية الثقافية إلاّ الذي يميز الإنسان عن غيره من الأنواع الأخرى، ويمكن تحديدها أو تعريفها بكل العناصر الموضوعية مثل اللغة والتاريخ والدين والعادات والتمايز الذاتي للبشر.
2. حددّ غوستاف لوبون أهم العناصر التي تتكون منها الحضارة، وهي الإنسان، الزمن، الأفكار، البيئة.
3. يقرّ غوستاف لوبون بأن النهوض الحضاري يتكفل به الزمن.
4. يقرر بأن تشييد الحضارة وبناءها على أسس صحيحة يقع على عاتق الإنسان ولا وجود لقوى خارجية تسيطر على ما يصدر عنه من سلوكيات بل تتحكم به قوى داخلية وهي الصفات والدوافع النفسية.
5. أكد غوستاف لوبون على إنّ الإنسان مسيّر في أحواله المصيرية، أما بقية أحواله فهو مخير لأنه قادر على احداث التغير المطلوب في صفاته النفسية وطباعه خلال الأجيال المتعاقبة.
6. يظهر جلياً للعيان خلال استعراض البحث ان غوستاف لوبون يؤكد على الإنسان باعتباره محور الحضارة والعامل الفاعل في نشوءها وتطورها و أيضاً قد يصبح سبباً في تدهورها و موتها.

---

[1] المصدر نفسه، ص16.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية

1. ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون، ط ١، دار الفكر ، بيروت، ٢٠٠٣ .
2. ابن منظور ، لسان العرب المحيط ،المجلد الأول، دار السان العرب ، بيروت ، ١٩٧٠.
3. احمد محمود صبحي ، في فلسفة التاريخ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، دط ، ١٩٩٦ .
4. اسوالد اشبنغلر ، تدهور الحضارة الغربية ، ترجمة: أحمد الشيباني ،ج١، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر ، بيروت ، دط ، دت .
5. جميل صليبا ، المعجم الفلسفي، ج١، دار الكتاب اللبناني، بيروت– لبنان، ١٩٨٢م.
6. حسين مؤنس ، الحضارة ، دراسة في أصول و عوامل قيامها وتطورها ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، د ط ، ١٩٧٨ .
7. حنا الفاخوري ، خليل البحر :تاريخ الفلسفة العربية ،ج 1 ،(بيروت – لبنان ،دار الجيل،1993).
8. روبير شنيرب ، تاريخ الحضارات العام ، القرن ١٩ ، إشراف: موريس كروزيه ، المجلد ٦ ، د ت.
9. سيغموند فرويد ، علم نفس الجماهير ، ترجمة: جورج طرابيشي ، ط١، دار الطليعة للطباعة ، بيروت ،٢٠٠٦.
10. غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة : عادل زعيتر، بيروت ، دار أحياء التراث العربي، ١٩٥٦ .
11. غوستاف لوبون ، اختلال التوازن العالمي ، ترجمة : صلاح الدين وصفي ، مطبعة العرب للبستاني ، مصر ، د ط ، ١٩٢٨ .
12. غوستاف لوبون ، حضارات الهند ، ترجمة: عادل زعيتر ، ط١، دار العالم العربي ، القاهرة، ٢٠١٠.
13. غوستاف لوبون، السنن النفسية لتطور الأمم ، ترجمة :عادل زعتير، دار المعارف – مصر، ٢٠١٤.
14. غوستاف لوبون، الآراء و المعتقدات، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، القاهرة، ١٩١١.
15. فراس السواح ، دين الإنسان ، ط ٤، دار علاء الدين للنشر والتوزيع و الترجمة، دمشق ، ٢٠٠٢.
16. قسطنطين زريق ، في معركة الحضارة ،ط٤، دار العلم للملايين ، بيروت، ١٩٨١ .
17. كولن ولسون ، فكرة الزمان عبر التاريخ ، ترجمة : فؤاد كامل، مراجعة: شوقي جلال، عالم المعرفة– كويت، ١٩٩١.
18. محمود الشرقاوي ، التفسير الديني للتاريخ ، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر القاهرة، د ط ، دت .
19. مصطفى البغا:بحوث في نظام الإسلام: ط1،مج 1،(سوريا– جامعة دمشق ،1998)
20. نصر محمد عارف ، الحضارة ، الثقافة المدنية ، دراسة السير المصطلح ودلالة المفهوم ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط٢، فرجينيا ، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩٤ .
21. ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة: زكي نجيب محمود،ج١ من المجلد الأول ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٨.
22. ول ديورانت ، قصة الفلسفة، ترجمة: زكي نجيب محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٩.

23. يمنى طريف الخولي ، الزمان في الفلسفة والعلم،ط١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ،١٩٩٩.

24. يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة في العصر الوسيط ، دار المعارف ، القاهرة ، د ط ، دت.

ثانياً: المصادر الأجنبية

1. Benoit Marpeau ، Gustave Le Bon ، parcours d'un intellectuel(1841-1931) ،Cnrs Editions ، Paris، 2000.
2. Catherine Rouvier ، les idées politiques de Gustave le bon، press unversitaires.
3. Gustave Le Bon ، Bases scientifiques d'une Philosophie de l ' histoire.
4. Gustave Le Bon La Révolution Française et la psychologie des revolutions .